اقتباسات من انجيل لم تعرفه المجامع

بقلم : عبد الله القصيمي

الشعوب اربعة : شعب يبتكر الحضارة، وشعب يقلدها وشعب ينفعل بها ، وشعب لا يبتكرها ولا يقلدها ولا ينفعل بها ... فمن اي الاربعة نحن ؟

*

التفكير والاعتقاد حقيقتان متعارضتان ... فالذين يأخذون الامور بالاعتقاد لا يفكرون ، والذين يأخذونها بالتفكير لا يعتقدون ... والتفكير صورة من صور الخلق والعطاء ؛ اما الاعتقاد فأسلوب من اساليب الاستسلام والعبودية ... فالمفكر خالق ، أما المعتقد فمخلوق ... ولهذا نجد الشعوب المفكرة آلهة فوق الشعوب المعتقدة : تخلقها وتحكمها وتعطيها الموت وان شاءت فبعض الحياة احياناً ... والاعتقاد نوع من الجبن والعجز ، كما ان التفكير شجاعة وقوة . فالمفكر انسان جريء مقتحم ، يمضي في المجاهل ويناضل ضد الخوف والوقوف... أما المعتقد فجبان وقّاف، يخشى الاقتحام ويرضى بما كان، خوفاً بما قد يكون .

وهذا هو السبب في ان المفكرين دائماً اقوياء غالبون ، بينما المعتقدون دائماً ضعفاء مغلوبون ... ان الاعتقاد ضد التفكير بقدرما التقهقر ضد التقدم.

*

لم يقفز التطور الفكري العربي في مداه كله الى القمة التي ينطلق منها المفكرون الاحرار المردة الهدامون الذين يهدمون القديم ليقيموا مكانه طوراً جديداً من اطوار التاريخ .

في كل الامم وجد اولئك العمالقة الذين تسميهم المجتمعات بالزنادقة — اولئك البنّاءون الهدامون — الا الامة العربية .. فانها لم تلد واحداً من هؤلاء المردة الخالقين .

لقد ظل الفكر العربي يسير في مجرى التاريخ طائعاً متعبداً ، لا يخرج عليه ولا يخرج به ... لهذا بقي دائماً مخلوقاً ولم يصبح خالقاً .. كان العرب دائماً يخلقهم التاريخ ولم يبلغوا ان يخلقوا التاريخ — لقد ظلوا عبيداً ولم يتطوروا الى آلهة .

هل يمكن ان يفعل الذين يشعرون مشاعر العبيد افعال الآلهة، وهل يمكن ان يظل الذين يشعرون مشاعر الآلهة يفعلون فعال العبيد ؟..

ولكن لماذا لم يتطور العرب الى ارباب ؟ هل العجز في طاقتهم أم في ظروفهم ؟ نريد دائماً ان نقول انه في ظروفهم، ولكن كيف ؟ لماذا تركوا ظروفهم دائماً ضدهم ؟ ولماذا لم يغيروها لتكون معهم ، اوليس الناس هم الذين يصنعون الظروف ويتحكمون فيها ، اليسوا يصنعون سيئها وفاضلها ؟ لقد انتصر الآخرون على سيئها وجعلوا منها ظروفاً صالحة، فما بال العرب لم يفعلوا كذلك ؟

نقول احياناً : ان عوامل الهدم والتعويق — ومنها مثلاً الطغيان ورجال الدين — هي التي عاقت العرب ان يصعدوا الى طور الخالقين ...

نعم ، ان اللاهوتية والطغيان قوتان هدامتان للشعوب وتطورها .. ولكن لقد وجدت هاتان القوتان الهادمتان في شعوب العالم اجمع فأطاحت بهما الشعوب ، فلماذا عجز العرب عن الاطاحة بهما ؟

لم يكن العرب اسوأ الشعوب ظروفاً ولا احسنها ظروفاً بل وجد من هم افضل منهم ومن هم اسوأ في ظروفهم ... وقد تغلب كل اولئك — او هم في سبيل التغلب — على جميع المعوقات، فلماذا لم يتغلب العرب ؟ لماذا ظل العقل العربي حتى اليوم يرفض ان يكون حراً — يرفض ان يكون خالقاً يخلق نفسه وحياته واوضاعه ، ولماذا يريد دائماً ان يظل عبداً مأموراً مخلوقاً يتلقى ذاته من وراء ذاته ، ويتلقى الاوامر التي تشعره بانه مخلوق لا خالق ؟ هل النقص في الطاقة ام في الظروف ؟ احب ان اذهب دائماً الى القول بالاحتمال الاخير

وان كنت الآن عاجزاً عن التدليل عليه ...

ان الفروق بين العرب الذين لا تزال تركبهم عوامل الهدم وبين الشعوب الاخرى المنتصرة هي ان الاخيرة قد ازالت تلك العوامل وانتصرت عليها وان العرب لم يفعلوا ذلك ... فلماذا ؟

*

كثير من العقائد والمذاهب والاشخاص يسيطرون علينا ليس لانهم اقوياء او خليقون بهذه السيطرة بل لاننا نحن ضعفاء — لاننا نحن نريد ان نعطي انفسنا ومقاودنا للآخرين — نريد ان نخرج من انفسنا ومن امتلاكها ، اذ يصعب علينا ان نملكها وندبر امرها ونصنع حاضرها ومصيرها .

ما اكثر الذين يشقون لو ملكوا انفسهم وعقائدهم وافكارهم ! وما اكثر ما يحاربون ازاء ذلك ! انهم من اجل هذا يفرون الى العبودية ويخلقون الارباب والاوهام ليعطوها حياتهم وقيادهم ليستريحوا هم من اعباء الحرية ومتاعبها !

ان الحرية — لا العبودية — هي الالم والمشكلة في حياة العاجزين ... ان هؤلاء العاجزين يريدون ان يصنعوا لكل مشكلة من مشاكلهم رباً يلقونها عليه لينعموا هم في فردوس العبودية — يريدون ان تتدخل الارباب والعقائد في كل شؤونهم ليفروا هم منها ومن محاولة علاجها ومن القلق عليها ..

انظر الى هذه الشعوب كيف تريد ان تجد في كل طريق من طرقها رباً وعقيدة وطاغية يحزم ظهورها بالسياط ويشعرها دائماً بما تحتاج اليه وبما تتعشق — يشعرها دائماً بالعبودية التي تبحث عنها في نفسها وخارج نفسها لانها تهبها راحة العبيد الآبقين من حريتهم اللعينة المتعبة !

ان ضعف البشر وجبنهم هما اللذان خلقا أربابهم وعقائدهم وطغاتهم .. وهذا هو التفسير لهذه الظاهرة الكبيرة التي معناها ان اضعف الناس واجبنهم هم اكثرهم واقواهم أرباباً وعقائد وطغاة .. وان قوتهم حينئذ هي الطريق الى تحررهم من كل ذلك ...

ليس النزوع الى الاعتقادات والى ما فيها من آلهة واوهام متعة غير هرب من النفس ومن مشاكلها وحرياتها .. ما اروع اخطاء البشر وما اكثر ما يحتاجون الى التغذي بأوهامهم ... انهم يصنعون اربابهم وطغاتهم ثم يعطونهم القوة ثم يذهبون يعبدونهم ويستجدونهم بعض ما اعطوهم !..

ان دلالة الوهم على العجز والحاجة اكثر من دلالته على الخطأ العقلي !

*

سمعت مرة من يسأل : لماذا يقدس الناس الماضي ؟

فكان الجواب : ان الناس يقدسون الماضي لانهم يهابون ولوج المستقبل ، فهو نوع من الخوف لا من الصلاح. فالايمان بالماضي والاطمئنان اليه صورة من صور الفرار من المعركة — معركة اقتحام المستقبل . وهو يشبه من يقبل الهزيمة والذل المضروب خوفاً من اخطار محاولة التغيير والانتصار وآلامها ..

افكار البشر وآمالهم تحتاج الى مضاجع ومواقع تحط عليها كأجسادهم واقدامهم .. واجبن الناس واهونهم هم الذين يتقبلون الماضي الذليل لانهم لا يريدون ان يتعبوا انفسهم باقتحام المستقبل العظيم ، هم كالذين يرضون بالحياة الحاضرة الذليلة لئلا يشقوا على انفسهم بمحاولة ايجاد حياة مقبله افضل ..

وقد نجد دائماً تلازماً بين الضعف والاستمساك بالماضي الميت : فالضعفاء هم اشد تقديساً لذلك الماضي الميت وتحدثاً عنه وتفاخراً به ..

ولكن الاقوياء بعكس ذلك — انهم دائماً ينبسطون على المستقبل وينشرون فيه آمالهم وحياتهم وهمهم ...

والسبب أن الضعفاء اعجز من ان يفعلوا ويغيروا — أي اعجز من الهجوم على المستقبل واخوف منه .. فيذهبون يعوضون نقصهم ويسوغون عجزهم بامتداح الماضي الذي به يقتاتون .. فكأنهم يوحون بهذا الى انفسهم والى الآخرين انهم لم يعجزوا ولم ينقصوا ولكنهم تورعوا .. وهذا ليس بفضيلة الا بمقدار ما يكون العجز والجبن والدفاع عنهما فضيلة !.. وما مثل هؤلاء الذين يدافعون عن مزايا الماضي — لانهم لا يستطيعون ان يصنعوا المستقبل ، او لانهم يخشون ويخشونه احتمالاته المجهولة — الا كمثل من يدافعون عن الاكواخ وعن وسائل الحياة المتأخرة المتبعة القديمة التي ورثوها عن اباءهم وما فيها من جهل وغباء بحجة احترام الآباء ، لانهم لا يستطيعون ان يصنعوا غير ذلك ، أو لانهم يجبنون عن المحاولة وتكاليفها الشاقة .. لهذا لا بد ان يكون اكثر الناس دفاعاً عن الماضي وعن آلهته وحنيناً اليه واليها هم اكثرهم رذائل وهبوطاً في الموازين الانسانية !!

اريد ان اسمي التعلق بالماضي بعقدة الهرب والعجز والجبن !

*

ليس الذي يشكوه العرب هوازمة العقيدة بل تضخمها..

ان اظهر خصائصنا اننا معتقدون لا مفكرون، فمتى نصبح معتقدين ومفكرين ؟ او متى نعتقد لاننا نفكر اذ نحن الآن لا نفكر لاننا نعتقد ؟

الاعتقاد نوع من القبورية .. اما التفكير فنشاط ذاتي . والبشر لا يسعدون او يتقدمون لان من ورائهم مقابر جميلة ضخمة .. ولكنهم يسعدون ويتقدمون اذا كان نشاطهم الذاتي ضخماً !

*

ان الطبيعة لتذهب تحشد نفسها وتجهدها زمناً طويلاً لتظهر قوية مؤنقة في فكر او في صورة او في قوة بدنية او في موهبة فنية .. وليس التفوق الانساني الذي نجده احياناً قليلة إلا مظهراً من مظاهر تكامل الطبيعة وحشدها نفسها وتجمع خصائصها المبدعة في احد شخوصها الممتازة .

واذا كان العرب سيظلون يأبون الا ان يطاردوا تجمع الطبيعة وتفوقها فيهم – بان يذهبوا يخمدون كل خصائص الامتياز بينهم كيف كان نوع هذا الامتياز – فلن يظفروا من الحياة الا بشر احتمالاتها ..

على ماذا يخشون من الحرية والتفكير ؟ هل يخشون على عقائدهم وتقاليدهم ؟ لقد اثبتت التجارب الكاملة انهم صبر جداً على ملكياتهم الروحية ، اوفياء لها، وان وراءهم من الارصدة الاعتقادية ما لا يخشى عليه من النفاد ..

ان علينا ان نطلق مارد الفكر ليلتحم بملاك الاعتقاد .. ومن التحامهما ستبرز الحقيقة الكبيرة التي لا تزال تبحث عنا بينما نحن نبحث عن غيرها !

*

اننا لنلوم المظلوم اكثر مما نلوم الظالم .. فالذي يستجيب في نفسه لداعي « اريد » خير من الذي يستجيب في نفس غيره لداعي « اريد منك» .. وهذه هي الحقيقة : ان السوط لا يقع الا على الظهر الذي يتهيأ له ..

*

لو خيرت بين ان تكون صحافة واقلام تحت الرقابة وبين الا تكون لاخترت الشر الاخير .. لان كل ما سيكتب وينشر في الحالة الأولى سوف يكون في خدمة الاستبداد وتقويته . ومن يرفض هذه الخدمة سيسحق .. وحينئذ سيفسد الصالح أو يختفي ويظهر الفاسد ويتجمع .: فلا يبقى الا النفاق ودق الطبول في ركاب الطاغية !!

*

الحرية الموهوبة كالحرية المسلوبة: كلتاهما عبودية!! والذي يملك ان يعطي يملك ان يأخذ ... والمعطي القادر لا يمكن ان يعطي الا مايعزز قدرته – اي فعطاؤه طريق الى منعه او هو اسلوب من اساليب المنع .

*

الذي يعطي الآخرين حقوقهم لانه يملكها شر من الذي لا يعطيها لانه لا يملكها .

*

الحاكم المستبد يسلب الشعب كل شيء ثم يعطيه شيئاً أو اشياء يسلط عليها الاضواء ويطلق من حولها المدافع والطبول ...

ان شر الحكام هو المستبد المصلح . فاصلاح المستبد ليس الا عملية تسويغ للاستبداد . فهو كوضع الموت في برشامة !!

*

الأشياء التي يعطيها المستبد لا يمكن ان تكون جذرية – لا يمكن ان تكون انسانية ، بل لا بد ان تكون حيوانية ...

قد يأذن بأشياء مادية : بوجود جيش او مصنع نسيج او اصلاح ارض ... ولكنه لن يعطي حرية ولا كرامة ولا وعياً ولا نضجاً انسانياً ... انه دائماً يسلب الشعب ذاته مهما اعطاه غيرها – يريد دائماً ان يظل مروض وحوش .

*

العهد الاستبدادي لا يعطي شيئاً مهما بدا معطياً .. وكل ما يقدمه من اصلاحات هو لا يصنعه ولكنه يجمعه ويستعيره من نتاج الديمقراطيات الخالقة ويقلدها فيه ، محاولاً منافستها او تغطية تفوقها – هو لا يوجد ولكنه قد يأخذ – انه كالسارق الذي يسرق اعمال الآخرين ثم يذهب بوقاحة يباهيهم بما سرق منهم .. ان جميع فضائل الاستبداد – ان كان له فضائل –

صدر حديثاً في سلسلة

خوالد التراث الكلاسيكي

قصة مدينتين

لكبير كتاب الإنكليز

تشارلز ديكنز

الرائعة العالمية الخالدة التي طالما تاق الادباء والمدرسون والطلاب الى ان يجدوها بين ايديهم في طبعة دقيقة كاملة بالحرف الواحد. انها قصة مدينتي لندن وباريس في عصر الثورة الفرنسية الكبرى ، قصة الظلم والاضطهاد ، والغدر والانسانية ، والحب والتضحية .

نقلها الى العربية الاستاذ

منير البعلبكي

الثمن ست ليرات — دار العلم للملايين

مستعارة من الديمقراطية، وجميع رذائل الديمقراطية هي رواسب استبدادية.

*

لو احصينا جميع عناصر الحضارات لوجدناها جميعاً ديمقراطية الأنساب... فالحضارة هي مجموع الانسانية - مجموع افكارها وتجاربها واحتياجاتها ومشاعرها وطاقاتها ... والانسانية بمجموعها لا يحتمل ان تتفجر كلها في شهوة رجل واحد مسعور مذعور .

*

لا يقبل الطاغية في اعوانه الا الضعيف الغبي ، وقد يتسامح فيقبل الذكي المنافق .. وهو يحرص دائماً على ان يكون هؤلاء الاعوان من الجرحى والمرضى ليضطروا ابداً الى الاستطباب في مستشفاه العسكري !!

*

من اعجب حجج الطغاة التي يسوغون بها طغيانهم يخشون فيا يزعمون - حرية الشعوب على الشعوب ! ولكنهم لا يخشون حريتهم هم على الشعوب !

*

الذين يقاومون الحرية لا يقاومونها لانهم يكرهونها أو يعتقدون فسادها ... وانما يفعلون ذلك لانهم يريدونها كلها لانفسهم. فهم محتكرون انانيون لا مصلحون او مفكرون .. وحينما يذهبون يحذروننا من الحرية ومن اضرارها وجب ان ننظر ، فلا بد انهم يعنون اضرارها بهم هم وبطغيانهم .

*

عجباً ! ما اوسع ضمير الطاغية !! إنه يوجب لنفسه ما يحرمه على عشرات الملايين التي هي مجموع الشعب ، ويعطيها من الحقوق ما لا يأذن به لكل تلك الملايين ! واذا كان يخشى الا يهتدي الشعب كله الى طريقه حينما يكون حراً في التعرف اليه فكيف يضمن أن يهتدي فرد واحد الى ذلك الطريق ؟ واذا كانت ملايين الجماهير لا تستطيع الاهتداء الى الاحساس بآلامها هي ، فهل يمكن ان يهتدي الى الاحساس بها رجل واحد ليس به الم واحد من تلك الآلام ؟

*

الحاكم الطاغية لا يمكن ان يكون حاكماً فاضلا لسبب بسيط هو انه لا يستطيع ان يكون كذلك... لانه لو فعل لسقط وهو لا يستطيع ان يسقط ويهلك بارادته.. ولهذا لو صعد الى مجده بلا رذيلة لما كان ممكناً ان يصل الى قمته الا وهو بلا فضيلة !!

*

هل رأيت من يعطي الخنجر لقاتله ، ومن يحني هامته لكي يتسلق عليها اللص الى منزله ؟

لقد رأينا كلنا ذلك ... فالشعب الذي يقيم فوقه حاكماً طاغية هو ذلك القتيل الذي يعطي قاتله الخنجر ويطأطىء هامته كي يتسلق من فوقها اللص!!

والقاتل - الذي هو الحاكم - لا حول له لولا المقتول - الذي هو الشعب ...

*

من التجارب الاليمة : ان الناس لا يحبون الآخرين ، ولكنهم يحبون انفسهم في الآخرين !! ولهذا فهم لا يمنحونك صداقتهم أو حبهم الا حينما تكون طريقاً لهم الى ذواتهم !!

عبدالله علي القصيمي

دار بيروت - للطباعة والنشر

بناية المغازيرية ، تلفون ٣٩٥ بيروت - لبنان

صدر حديثاً

١ - بيرون

الكتاب الاول من مجموعة اعلام الشعر

تأليف — **ترجمة**

اندريه موروا — **بهيج شعبان**

•

٢ - فرنز ليست

الكتاب الثالث من مجموعة اعلام الموسيقى

تأليف — **ترجمة**

غي دي بورتاليس — **بهيج شعبان**

•

٣ - فن الشعر

الكتاب الثاني من مجموعة النقد الادبي

تأليف

الدكتور احسان عباس

المحاضر في الادب العربي بكلية الخرطوم الجامعية

•

٤ - لسان العرب

الطبعة الممتازة

الاجزاء : السابع والثامن والتاسع والعاشر

« المجلد الثاني »

حرف التاء والثاء والجيم والحاء